



الإسلام سأم بطل خرب التحريير القفقاسية

- ليست هي المرة الأولى التي يتصاول فيها المسلمون والروس في أفغانستان ، فتاريخ العدوان الروسي على المسلمين قديم يعود إلى ما يزيد على اربعمائة عام . بداد القياصرة ثم جاء السوفييت فتابعوا مسيرة القهر والتسلط يحدو الجميع - سابقين ولاحقين - كره الإسلام ورغبة عارمة في القضاء عليه .
- ومما يبعث الحزن والأسف ان الأكثرية الساحقة من أبناء المسلمين اليوم لا تكاد تعرف شيئاً عن تاريخ الشعوب الإسلامية داخل (السرور الحديدي) ولا عن ملاحم الجهاد التي خاضتها تلك الشعوب على مدى أربعة قرون أو تزيد ، ولا عن الأوضاع المريرة التي تعيشها هذه الشعوب في دينها وتراثها وحياتها الاجتماعية والاقتصادية ، والقهر الذي تعانيه على يد القياصرة الجدد الذين قدموا انفسهم للناس بارادية الاشتراكية ، ومسوح الشيوعية ●

بقلم : عبد الكريم مشهداني



حين عجز العثمانيون من جهة ، وملوك فارس من جهة أخرى ، عن تحمل مسؤولية الدفاع عن القفقاس ، تصدى للمقاومة أمراء البلاد المحليون وعلماؤها فتحالفوا فيما بينهم واشتبكوا مع الروس في حروب دامية ، لكن روسيا تمكنت أخيراً - بما كانت تعبء من جيوش جرارة وبما كانت تملك من سلاح حديث - من هزيمة أولئك الأمراء فاستسلموا للروس ..

الإمام شامل بطل داغستان :

عندها تولى قيادة الثورة علماء الأمة وسرعان ما التف الشعب حولهم وأعلنت القيادة الجديدة ، التزامها بالشريعة الإسلامية ، وأن المعاملات بين الناس ستكون على أساس منها ، وليس على أساس العادات والإعراف القديمة المعمول بها من قبل ، وبرز الغازي محمد (قاضي سلا) زعيماً لهذه الحركة ، وكان من العلماء المتبحرين في العلوم الدينية والعربية (٢) وظل الغازي محمد يقاوم إلى أن سقط شهيداً عام ١٨٣٢ م . في ساحة المعركة ، بعد أن حاصرت قوات الروس في إحدى القرى ، وتولى القيادة بعده قائد آخر هو (حمزة بك) الذي ما لبث أن استشهد بعد عامين ، عند ذلك سلمت زعامة الثورة للإمام محمد شامل ،

الذي يقول عنه الأمير شكيب أرسلان :

انه على نمط المجاهد الأمير عبد القادر الجزائري ، فكلاهما خرج من المشيخة إلى قيادة الجيوش وإمارة الجهاد . وكما يذكر المؤرخ البريطاني (برنارد لويس) أن الإمام شاملاً بطل المقاومة القفقاسية هو ثالث ثلاثة ، برزوا في عصر واحد ، تجمع بينهم كثير من الملامح المشتركة ، فكلهم قادوا حركة شعبية ضد المشركين ،

وثلاثتهم كانوا زعماء دينيين وهم (أحمد بريلوي) في الهند و (شامل) في داغستان و (عبد القادر) في الجزائر ، ولقد غلبوا على أمرهم للفرق الهائل بين قوتهم الصغيرة وقوة أعدائهم الضخمة» (٣) .

وكان إقليم داغستان - على الجانب الغربي لبحر قزوين - من تلك الأقاليم التي اتجهت إليها أطماع القيصرية ، منذ عهد بعيد ، ولكن هذه الأطماع ، كانت تصطدم بمقاومة شديدة من الشعب الداغستاني المسلم ، الذي فضل أن يعيش تحت ظل دولة إسلامية ، فكان يحكمه ملوك فارس مرة ، وسلاطين آل عثمان مرة أخرى ..

وفي عام ١٧٢٢ م احتل القيصر الروسي بطرس الأكبر ذلك الإقليم ، إلا أن (نادر شاه) ملك فارس ، سرعان ما استرجعه عام ١٧٣٥ م (١) .

وبعد ضعف الساطان الفارسي ، تمكن الروس من غزو داغستان مرة أخرى ، واستولوا عليه عام ١٧٧٥ م ، وحين حاول حكام فارس على عهد الدولة القاجارية استرداده من روسيا ، لم يستطيعوا ذلك ، حيث تمكنت روسيا فيما بعد ، أن تمد سلطانها على جميع أقاليم القفقاس .

ولكن هل استسلمت الشعوب القفقاسية للغزاة بسهولة ، أم انها أبدت مقاومة ضارية ، كلفت الروس كثيراً من الدماء والأموال والأهوال ؟!

منذ عهد القيصر الروسي (إيفان الرهيب) ١٥٣٢ - ١٥٨٤ م ، الذي وجه جيوشه عام ١٥٥٢ م إلى مدينة (قازان) عاصمة الدولة التترية المسلمة حيث احتلها وقضى على الدولة ، وطرد المسلمين من بقية المدن ومن السهول الخصبة التي كانوا يقطنونها والتي أعطيت للفلاحين الروس .

منذ ذلك الوقت والروس يزحفون شيئاً فشيئاً - وفي مختلف العهود - على الشعوب والممالك الإسلامية في آسيا الوسطى وشبه جزيرة القرم وغيرها من بلاد الإسلام المتاخمة لهم معملين في المسلمين أفانين التنصير والتهجير والتقتيل ، حتى جاء العهد الشيوعي ففرض على كل أثر للمقاومة الإسلامية ، وأتم ما بدا به القيصرية ، ولكن بعنف أشد ضارباً عرض الحائط كل شعاراته الوهمية بحق الشعوب في تقرير مصيرها .

من هذه الشعوب الإسلامية التي عانت - وما تزال تعاني - من الاستعمار الروسي الشعوب القفقاسية وهي شعوب قوية الشكيمة ماضية الناس ، بأسلة شجاعة نازلت المحتلين طويلاً ، إلى أن غلبت على أمرها ، أمام القوة الغاشمة للمستعمر الروسي ..

الأمم شامل

ومسلمو القفقيسي اليوم :

على الرغم من كل محاولات الطمس والتشويه التي تقوم بها الدعاية السوفييتية لحركات الكفاح الإسلامي في روسيا ، وتصوير هذه الحركات على أنها رجعية ومتخلفة ، فهي جزء من الحملة على الإسلام ذاته ، على الرغم من ذلك فإن أبطال الجهاد الإسلامي وعلى رأسهم الإمام شامل يعتبرون في نظر الشيوعية الإسلامية في الاتحاد السوفييتي أبطالاً وعظماء قادوا مقاومة شرعية وشريفة من أجل تحرير بلادهم من الأجنبي ، وأن هؤلاء الرجال مثل كريمة في جهادهم ،

ففي سنة ١٩٥١ م أيام ستالين شنت السلطات السوفييتية حملة ضد التراث الإسلامي تولته وسائل الاعلام وأجهزة الحزب ، يدعى أنه لا يتماشى مع الوضع الاشتراكي الجديد ، وابتدأت الحملة بهجوم على الملاحم الشعبية التي تجدد دفاع المسلمين ضد الروس في العصور المختلفة ، ثم منعت هذه الملاحم من التداول بحجة أنها «تدعو إلى حرب عدوانية أيديولوجية رجعية ، وتنطوي على تعصب إسلامي مما يحول دون تآخي الشعوب» (٦) .

ثم تصاعدت الحملة حين القي احد الشيوعيين في القفقيس - وفي نفس السنة كلمة عنيفة حمل فيها على الإسلام وعلى الحركات الإسلامية المعادية للروس ، وعلى رأسها حركة (المريدين) التي قادها الإمام شامل ، ولما كان عهد ستالين هو عهد الكبت والقمع والإرهاب والبطش فقد سكت المسلمون على مضض ، وما كاد ينتهي عهد ستالين ،

ويتنفس المسلمون قليلاً حتى راحوا يعلنون عن وجوب رد اعتبار تلك الحركات وقدمت دراسات تاريخية مطولة تدافع عن الإمام شامل وتعتبره بطلاً وطنياً قادراً

داغستان إليهم بعد أن قضوا على آخر جيوب المقاومة ، وقد هاجر كثير من الداغستانيين إلى الدولة العثمانية فراراً بدينهم وانفة من العيش تحت حكم الروس ، وبقي بعضهم الآخر يعيش منعزلاً عن الروس «محتفظين بذكريات بطولاتهم خلال حروبهم الطويلة مع الروس ، ومحافظين على إيمانهم وعقيدتهم إلى أن جاءت الثورة الشيوعية» (٥) .

وحين ظهرت القلاقل الداخلية في روسيا قبل ثورة ١٩١٧ م واضطربت البلاد بالدعوة الشيوعية لاسقاط الحكم القيصري ، انتهز المسلمون هذه الفرصة وعادوا للمقاومة من جديد ، وقام علماء داغستان بانتخاب احدهم وهو «نجم الدين غوتسنسكي إماماً لهم حيث استطاع أن يقيم سلطة إسلامية في الجبال ، وكان رجاله يخططون لشن حرب ضد الروس لاستخلاص سهلهم التي سلبوها منهم ، وقاموا بسلسلة من الهجمات من الجبال وذلك قبل مجيء الثورة البولشفية بقليل .

ولما جاء الشيوعيون منحوا الوعود الكاذبة للمسلمين وأعلنوا أنهم سيقفون مع الشعوب المغلوبة ، وأن حكومة

«لنين» ستمنح الاستقلال لكل البلدان التي استولى عليها القيصرية بالقوة ،

فكان أن أعلنت الشعوب القفقيسية استقلالها ومنها : الشعب الداغستاني ،

لكن الشيوعيين ما أن ثبتوا أقدامهم في الحكم بعد القضاء على «الروس البيض» حتى تنكروا لوعودهم ، وقلبوا للمسلمين ظهر المجن ، وجرّدوا جيوشهم من جديد لاحتلال القفقيس بالقوة الغاشمة ، والحقوه بحكومة موسكو ،

وقبضوا على زعماء البلاد فطرحوهم في السجون ، وشرّدوا بعضهم الآخر في عواصم أوروبا حيث راحوا يتابعون الكفاح السياسي لقضية بلادهم في المنافي البعيدة .

تولى الإمام شامل - الذي ولد عام ١٧٩٥ - وتوفي عام ١٨٧١ - قيادة الثورة ، وكان «حسن الإدارة بصيراً بالجهاد» ، والتف حوله الشعب الداغستاني ، وظل يقاتل طيلة خمس وعشرين سنة ، ظفر بها بالروس في مواقع عديدة ، وألقى الرعب في قلوبهم واجلاهم عن جميع البلاد ، ما عدا بعض المواقع ثبتوا فيها في الناحية الجنوبية ،

وكانت أشد المعارك التي شنّها عليهم ما بين ١٨٤٣ - ١٨٤٤ م ، حيث فتح جميع الحصون التي كانت لهم في الجبال ، إلى أن جرد الروس عليه جيوشاً جرارة ، ومازالت روسيا توالي عليه الزخوف حتى تمكنت من البلاد ،

ولكن بقي الشيخ شامل عشر سنوات تالية يناوشها القتال في الجهة الغربية من الجبال ، ولم يستسلم إلا في سنة ١٨٥٩ م (٤) .

ظل القفقيسيون يقاتلون الروس مدة طويلة ، ولم تتمكن روسيا من الاستيلاء على بلادهم ، إلا بعد نصف قرن من الحروب الطاحنة ، ذاقت خلالها الأهوال وكانت الراية التي قاتل القفقيسيون تحتها هي راية الإسلام ، ففي ذلك الوقت لم يكونوا يعرفون الأفكار القومية أو غيرها لذلك أخذت الحرب طابع «الجهاد ضد الكفار» وكانت الحركة النقشيدية .

(وهي التي سميت في تاريخ المقاومة القفقيسية بحركة المريدين) . وعلمائهم كانوا يذكون لهيب الثورة ، ووجدوا الناس للجهاد .

وحتى بعد استسلام الإمام شامل ظلت المقاومة الداغستانية مستمرة في الجبال حتى إذا قامت الحرب العثمانية الروسية عام ١٨٧٧ م اشتد ساعد الثورة من جديد ضد الغزاة الروس ، وعادت الأمل تحدهم بالاستقلال بمساعدة دولة الخلافة ، لكن العثمانيين خسروا الحرب وتلاشى الأمل ..

وتمكن الروس عام ١٨٨٧ م من ضم



ببعيد ...

، وتكاد لا تخفي رغبتها في التحرر
والانعتاق من ريقه الحكم الروسي ،

والشعوب الإسلامية هناك تحمل كراهية
عميقة للعنصر الروسي الذي يزعم أنه
«الأخ الأكبر» للشعوب السوفياتية !! .

حركة جهاد دفاعاً عن وطنه ، وإن حركة
(المريدين) كانت ردة فعل منطقية
وسليمة ضد الاستعمار الروسي في القرن
التاسع عشر ، كما دافعت هذه الدراسات
عن كل المسلمين الذين قاوموا روسيا
القيصرية في مختلف العصور (٧) .

هوامش :

- (١) حاضر العالم الإسلامي : (١٩٠/٢) .
- (٢) المرجع نفسه : (١٩٢/٢) .
- (٣) برنارد لويس - الغرب والشرق الأوسط -
تعريب الدكتور نبيل صبحي ص ١٥٥ .
- (٤) حاضر العالم الإسلامي : (١٩٢/٢) .
- (٥) المسلمون في الاتحاد السوفياتي - تعريب
الدكتور احسان حلي ص ٣٢ .
- (٦) المرجع نفسه ص ٣٤٢ .
- (٧) المرجع نفسه ص ٣٤٩ .

ومهما حاولت الدولة والحزب
والأجهزة الحكومية المختلفة ومهما كثرت
عمليات غسل المخ فالمسلمون هناك
ينظرون بأمل وشوق إلى الصحة
الإسلامية التي عمت أرجاء العالم
الإسلامي ، وايقظت روح الإسلام المتوترة
الناهضة في هذه الشعوب ، ولعل اليوم
الذي يبدأ فيه مسلمو الاتحاد
السوفييتي مطالبتهم بالحرية ليس

هذا ولو فتح المجال للمسلمين
ليتكلموا بحرية أكثر ، ولولا تكيم
الأقواء والأقلام الذي يمارسه الاتحاد
السوفييتي ضد مسلمي الاقطار
الإسلامية التي يحكمها ، لما وقف الأمر
عند هذا الحد ، ولما رضي المسلمون بأقل
من الاستقلال التام ، فالشبيبة الإسلامية
حتى تلك التي تعتنق الأفكار الحزبية
الاشتراكية ، لم تنس انتماءها الإسلامي